

حجاجية الاستعارة وتداولية الخطاب في الشعر الجزائري الحديث (الأمير عبد القادر أنموذجا)

ARGUMENTATIVE THEORY , METAPHOR & SPEECH PRAGMATICS IN MODEM ALGERIAN POETRY (EL AMIR ABDELKADER AS A MODEL)

عبد الرحمان باقي

جامعة جيلالي ليايس سيدي بلعباس (الجزائر)،

AbderrahmaneBaki5@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/03/30

تاريخ القبول: 2023/09/16

تاريخ الإرسال: 2023/06/09

ملخص:

يعتبر الخطاب الشعري مادة خاما وحقلا متعدد الأغراض مختلف الأنواع، يجعل دارس البيان وبخاصة المتأمل في الاستعارة، يدرك أهميتها في كل خطاب شعري، لأنها تمده بالقوة والتنوع، الشيء الذي يجعلها تحقق الجمال والإبداع، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال الجمع بين التراث و الحداثة، وذلك من خلال توظيف النظريات اللسانية المعاصرة، و المفاهيم البلاغية القديمة لأجل الجمع بين أسرار التراث مع استنطاق الطاقات الكامنة فيه. الشيء الذي يجعل خدمة النصوص بأبعادها المتنوعة يتحقق من خلال الاستعارة، وفق ما يعرف بالنظرية الحجاجية، والتي من شأنها أن توفر آلية حوارية تداولية تواصلية. من هنا فقد جاء هذا البحث ليقف على الأبعاد الحجاجية للاستعارة و كذا دورها في العملية التواصلية من خلال ل شعر الأمير عبد القادر الجزائري.

الكلمات المفتاحية

الحجاج، الاستعارة، التداولية، الشعر، الأمير عبد القادر.

ABSTRACT :

Poetic discourse is considered a raw material and a multi-purpose field of various kinds, which makes the student of the rhetoric , especially the one who meditates on metaphor, realize its importance in every poetic speech, because it provides it with strength and diversity, what makes it achieve beauty and creativity, and this will only be possible through combining heritage and modernity, through the use of contemporary linguistic theories, and ancient rhetorical concepts in order to combine the secrets of heritage with the exploration of the energies inherent in it. The thing that makes the service of texts in its various dimensions is achieved through metaphor, according to what is known as the Argumentative theory, which would provide a communicative Pragmatic dialogue mechanism from here, this research came to stand on the Argumentative dimensions of metaphor, as well as its role in the communicative process through the poetry of Algerian Prince Abdelkader Argumentative , metaphor , Pragmatics , poetry , Prince Abdelkader

Keywords:

Argumentative , metaphor , Pragmatics , poetry , Prince Abdelkader

1. مقدمة:

إن النظر إلى الخطاب الأدبي نظرة إقصائية من قبل الدارسين لحقله، باعتبار أنه لا يتسع لأكثر من مجرد الامتناع أو التسلية الفكرية أو العاطفية التي تحققها اللغة، مهملين بذلك جوانب كثيرة كأهداف وأبعاد وغايات هذه الخطابات. من هنا ومن خلال الجمع بين النظريات اللسانية الحديثة والمفاهيم البلاغية القديمة، صارت الاستعارة أهم ركيزة تؤثر في المتلقي عن طريق جلب انتباهه، رغم التطور الهائل الذي تشهده هذه العلوم خاصة في جانبها اللغوي أو البلاغي أو حتى التداولي الحجاجي. الشيء الذي جعل الآراء حولها تختلف وتتعدد.

إذ يعتبر الحجاج شتى طرق الكلام أدوات حجاجية، هدفها الأبرز التأثير في المتلقي. فبعد أن كانت الغاية من ورائه زخرفة أو تصنعا، أصبحت في ضوء النظرية الحجاجية من أهم المقومات الحجاجية الإقناعية. وبالحدث عن حجاجية الاستعارة في الوقت الراهن يستلزم العودة إلى أصولها والتي يرجعها أكثرهم إلى "أرسطو"، إضافة إلى الاهتمام الكبير الذي لاقته لدى القدماء. كالذي ذكره أبرزهم وهو عبد القاهر الجرجاني، والذي أدرك أهمية الاستعارة في عملية الإبداع الشعري من جانبها الحجاجي. كما لازالت تعتبر من أبرز القضايا التي لا تزال تحتل مكانة رفيعة في دراسات المحدثين لما تحويه من أثر في النفوس وما تملكه من فعل في العقول. إن قدرة المبدع على الإبداع هي ما حققت هذا الارتباط بين المتكلم وحجاجيه الخطاب الإبداعي من خلال قدرته على التأثير والإقناع.

إن معالجة الاستعارة لدى البلاغيين الجدد، لم تعد مجرد أداة للزخرفة وعنوان للبيان، بل أصبحت ممارسة فعلية، فصارت بذلك الاستعارة صاحبة الحظ الأوفر والنصيب الأكبر في الدراسات الحجاجية المعاصرة في بناء النصوص الشعرية.

من هنا برزت الأهمية الكبرى لعلم البلاغة المحقق للأسلوب الحجاجي في الخطاب الإنساني، سواء كانت غايتها التأثير في المخاطب وإقناعه أو كانت هي الحجاج في حد ذاته.

وما دام أن الحجاج يبحث دائما عن المتلقي لأخذ رأيه كموافقته أو قبوله، الشيء الذي جعل الحجاج أهم محور للتداولية. فموضوعه "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم، بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"¹.

إن العلوم الحديثة كاللسانيات والفلسفة والمنطق، مثلت مرجعيات متنوعة أدت إلى اعتماد مفاهيم وآليات متعددة للدرس التداولي كالأفعال الكلامية ونظرية الملاءمة أو النظرية الحجاجية.

لقد ظهرت انطلاقا مما تقدم طرقا جديدة، تجاوزت الدراسات السابقة التي كانت تحلل النصوص بعيدا عن سياقاتها الخارجية. التي أنتجتها، فجاء الطرح الجديد ليؤكد أن الجملة ما هي إلا فعل لغوي أو نقل لتجارب طرفي العملية الإبداعية التواصلية (المتكلم والمتلقي). أي أن أي دراسة راعت المتكلم وقصده من كلامه، والمخاطب ومدى تفاعله واستجابته وإدراكه مضمون الخطاب. ناهيك عن السياق التي يجري من خلاله الحدث الكلامي تسمى تداولية، أي ببساطة تعني دراسة اللغة والتواصل. أي أثناء التواصل أو الاستعمال، وهي ليست وليدة العصر الحديث، بل امتداد إلى عمق التراث النحوي والبلاغي. مما يحقق مقارنة بين الماضي والحاضر، وهو ما كان دافعا للنهوض بهذه الدراسة، من خلال الكشف عن أهم نقاط التقاطع بين آراء العلماء العرب والتي كانت تحمل في طياتها أبعادا تداولية.

إن الدارس لشعر الأمير عبد القادر يلاحظ أنه يمثل مرحلة الإحياء الأدبي في المغرب العربي بشكل عام والجزائري بصفة خاصة. ما يجعله امتداد للشعر العربي القديم. لذلك كان من الأهمية بمكان أن يقارب بمناهج حديثة كالتداولية.

إذن هل اعتمد العرب القدامى الأسس نفسها المعتمدة من قبل المعاصرين في رصد خصائص اللغة أثناء دراستها؟ وما هي الآليات اللغوية وغير اللغوية التي تسمح بالكشف عن الأبعاد التداولية في التراث البلاغي والنحوي؟ ، أما المنهج المتبع في التحليل والدراسة والمعتمد فهو المنهج التداولي والذي يتناسب وطبيعة الدراسة، إلى جانب الوصفي الذي يسمح باستقراء المادة العلمية ورصد مواقف العلماء القدماء والمحدثين. أما الأهداف التي ترمي إليها هذه الدراسة فهي:

* العودة إلى الإرث اللغوي القديم في جوانبه النحوية والبلاغية بنظرة مغايرة تحمل آليات حديثة يوفرها المنهج التداولي ويكشف من خلالها قيما مختلفة.

* الوقوف على بعض ما يزخر به التراث الشعري الجزائري. للوقوف عليه بالدراسة والتحليل للكشف في جماليته، ومدى استجابة أصحابها بالمناهج النقدية الحديثة.

يعتبر علم البيان من المجالات التي تعتمد البحث في أصول وقواعد، يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض، وفي وضوح الدلالة العقلية ذلك المعنى نفسه، إذ من مباحثه التشبيه والاستعارة والكنائية.

2. حاجية الاستعارة وتداولية الخطاب في الشعر الجزائري الحديث (الأمير عبد القادر أنموذجا)

1.2 البلاغة و الحجاج:

لقد اهتم البلاغيون القدامى بالحجاج، بوصفه وجها من أوجهها، لذا فإن المتتبع للكتب البلاغية العربية القديمة، يجد أن الحجاج وفق ما عرف وعرضت استعمالاته وآلياته وغاياته التي يرمي إليها، أنه لم يحظ

حجاجية الاستعارة وتداولية الخطاب في الشعر الجزائري الحديث (الأمير عبد القادر أنموذجا)

بالعناية إذا ما قورن بغيره من المباحث البلاغية الأخرى، باعتباره توزع بين باب الاستدلال والاستشهاد أو غيرهما. إلا أن تصورات مؤلفي الكتب البلاغية الفرعية تصب في عمق التدارس التداولي المعاصر الذي يأخذ أشكال وصور التوصل من باب الاهتمام. من هنا يتأكد أنه إذا كان علم المعاني يولي الاهتمام بتتبع طرائق الكلام أو أساليبه بالدراسة ليطباق مقتضى الحال، فإن البيان والبديع مرتبطان بكنه التواصل وجوهره، لأنهما يعطيان الأولوية للاعتبارات الجمالية المؤثرة في نفوس المتلقين²

من هنا فإن أسلوب الحجاج كان حضوره بارزا في بعض المؤلفات البلاغية، وركنا يلجأ إليه في البلاغة الإقناعية.

فإذ تتبعنا مفهوم البلاغة وجدناها مشتقة من قولهم: "بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، وبلغتها غيرك، ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"³

فالكلام الذي لا تستسيغه الأذان وتدرك معانيه بسهولة، مع ركاكة أسلوبه يعتبر كلاما غير بليغ لأن البلاغة "هي كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في النفس، كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض محسن"⁴

إن ظواهر البعد الحجاجي للبلاغة، يبدو متناثرا من خلال ثنايا التعاريف الخاصة بها، إذ تحمل إشارات كالحجة أو الإقناع والغلبة. فقد سئل ابن المقفع: ما البلاغة؟ فقال: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل"⁵، فهو يجعل الاحتجاج وجها من أوجه البلاغة وحالة من حالاتها، وقد ركز الجاحظ في حديثه عن البلاغة على جانبي الحجة والإقناع بقوة، فهي لأهميتها تكاد توازي الفن والتخيل، فقد أشار إلى أن العرب كانت تمدح من يظهر قوة الحجة في كلامهم، وذمهم لعكس ذلك. إذ قال: "وكانوا يمدحون شدة العارضة، وقوة المنة وظهور الحجة، وثبات الجنان، وكثرة الريق والعلو على الخصم ويهجون بخلاف ذلك"⁶.

إن الهدف الأساسي للبلاغة أو للحجاج يظهر أنه واحد، وهو إما الإمتاع و إما الإقناع للمتلقين، لذا فإن النظرية الحجاجية ترتبط ارتباطا وثيقا بالبلاغة، إذ يمكن القول أن " وراء كل حجاج بلاغة والعكس صحيح لأن مدار ذلك هو الإستغواء والإغراء، قصد الإمتاع والإقناع"⁷

إذا كانت الآليات البلاغية تضطلع بدور هام في قوة الخطاب الحجاجي ، كما أنها تؤثر بلا شك في عملية الإقناع الذي يعتبر صلب الحجاج، هذا ما يؤكد أهمية البلاغة والحجاج في الخطاب الإنساني، وهذا ما يفسر اشتهار أساليب بلاغية كثيرة وعديدة، لما تحويه من أدوات إقناعية وأساليب تأثيرية وطاقات حجاجية معتبرة، هي صلب الحجاج أهمها المنهج الكلامي والتكرار والتقييم .

فموضوع الاستعارة من الموضوعات المهيمنة على المواضيع الحجاجية الموافقة لأساليب البلاغة والخيال.

يمكن اعتبار الاستعارة آلية من آليات البلاغة، تمثل في استعمال الصور البيانية التي يستغلها المتكلم لما تزخر به من طاقات حجاجية. فإضافة إلى أنها توضح الصورة، وتشخصها وتقربها إلى الأذهان. فإنها ومن خلالها تثبت حكما أو تنفيه، كما تحمل السامع على التمعن فيها.

لقد أكد علماء البلاغة على أهميتها في التبليغ والتواصل. فانكبت جهودهم عليها، وألوهها عناية كبيرة، يتدارسونها بدقة محاولين اكتشاف معانيها عبر السفر والتحليق عبر مختلف الخطابات الإبداعية المتنوعة الأشكال والصور من خلال النصوص المختلفة، إضافة إلى التأكيد على دورها الإقناعي في السامع والتأثير فيه واستمالته.

فهذا ابن منظور يرجع مصطلح الاستعارة إلى مصدره الأول حين يقول: "والعارية والعارة : ما تداوله بينهم، وقد أعاره الشيء وأعاره منه، وعاوره إياه. والمعاورة والتعاور: شبه المداولة والتداول في الشيء يكون بين اثنين"⁸ أما عبد القاهر الجرجاني فقد أزال الإبهام والغموض عن كثير من الأمور المتعلقة بها، إذ يقول: "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي، معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية"⁹

وقد ميز الجرجاني بين نوعين من الاستعارة¹⁰:

حجاجية الاستعارة وتداولية الخطاب في الشعر الجزائري الحديث (الأمير عبد القادر أنموذجا)

ما وضعت لغير فائدة، كأن تضع أسامي لشيء واحد بحسب اختلاف الأجناس نحو وضع الشفة للإنسان والمشفر للبعير، والجحفة للفرس وما شاكل ذلك، فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها في غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجاز به موضعه. كأن يقول الشاعر:

فبتنا جلوسا عند مهرنا *** نزع من شفّتيه الصِّفّارا

فاستعمل الشفة في الفرس، وهي موضوعة للإنسان، فهذا لا يفيد شيئاً في نظر "صاحب الأسرار"، فلا فرق بين قوله: من شفّتيه وقوله من جحفتيه، لو قاله أنما يعطيها كلا الإسمين العضو المعلوم فحسب، أما المفيد (اللفظ)، فقد يظهر لنا باستعارته فائدة ومعنى من المعاني و غرض من الأغراض، وجملة تلك الفائدة وذلك الغرض لنسيه عندما يحمل المتكلم المتلقي على الاستنتاج، بعدما يتوفر عنصر التشبيه.

إن العمل على الربط بين عنصرين مختلفين وتقديمهما للمتلقي، هو ما عبر عنه الجرجاني بالكلام المفيد الذي وضعت له استعارته.

إن التداولية باعتبارها منهجا فلسفيا تحيل كل شيء إلى الفعل والمنفعة، وهو ما تظهر إشارته عند هذا التقسيم الذي أصّل إليه الجرجاني للاستعارة، باعتبارها تقوم على الفائدة والمنفعة، الشيء الذي يؤكد أنها من صميم الدراسات اللسانية الحديثة.

فقد بين الجرجاني خصائص الاستعارة قائلا: "ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها: أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدد من الدرر، وتجي من الغصن الواحد أنواعا من الثمر"¹¹

من ناحية أخرى عرف السكاكي الاستعارة بقوله: "أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به"¹²

كما أن السكاكي يعتبرها فرعا من فروع التشبيه، ويضرب مثلا فيقول: "إن المنية أنشبت أظفارها، ولأنت تريد بالمنية السبع بادعاء السبعية لها، وإنكار أن تكون شيئا غير سبع فنشبت ما يخص المشبه وهو الأظفار"¹³.

وخلاصة ما تقدم أن مصطلح الاستعارة مر في تطوره بعدة أطوار كالنمو والتطور والنضج من خلال القراءة المتمعنة، وتقليب الظن بعد الظن في الأشياء والمعاني، وسبر الأغوار الخاصة بالدلالات. الشيء الذي أعطى سعة واسعة لمفهوم الاستعارة. مما سمح للدارس بإطلاق العنان للخيال والتطور خدمة للعمل الأدبي.

إن تنصيب الاستعارة على رأس الصور البلاغية ليس اعتباطيا، ولكن له ما يبرره تاريخيا وعلميا، فتاريخيا نلاحظ أن أرسطو يعطي الأهمية نفسها للاستعارة فأعظم شيء عنده هو القدرة على صياغة الاستعارة، لأن هذه الصياغة تعني القدرة على رؤية التشابهات¹⁴

ضف إلى ذلك أن الاستعارة تختلف عن التشبيه كونه " يجعلنا نقف أمام لوحتين ظاهرتين بينهما رابط ما، في حين أن الاستعارة تضعنا أمام لوحة واحدة في الظاهر تتحول إلى لوحتين في الباطن، يقوم المتلقي بدور كبير في وجود الاستعارة وإحيائها"¹⁵

تبتعد الاستعارة عن الرؤية القريبة، الشيء الذي يحقق التدبر والتأمل والتدقيق للوصول إلى ما وراء اللفظ، هذا ما جعلها تنفرد بالتميز عن سائر الفنون البلاغية الأخرى، فالإيحاء والعمق الدلالي المتحقق من خلالها يحقق كثافة وغزارة المعنى رغم قلة اللفظ.

2.2 الدور الحجاجي للاستعارة في شعر الأمير عبد القادر

رغم التطور الهائل و المتسارع الذي تشهده العلوم اللغوية، إلا أن الاستعارة جعلت من نفسها، أهم شيء يجلب الباحثين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم. الشيء الذي يجعل تحليلها لا يتم إلا من خلال تحديد العلاقة بين المستعار منه و المستعار له.

يقول الشاعر:

لنا في كل مكرمة مجال *** ومن فوق السماك لنا رجال

ركبنا للمكارم كل هول *** وخصنا بأبحرا ولها زجال¹⁶

تتجلى من خلال هذين البيتين مناقب الأمير عبد القادر الأخلاقية الحميدة، وتبدو ظاهرة بطولاته ومكارمه، فبعدد خصالهم التي تميزهم عن غيرهم. فقد كان يتحمل الصعاب عبر سلم المكارم للوصول إلى المجد. من (شجاعة وفروسية ونجدة ومروءة...)، ضف إلى ذلك الحديث عن رحلاته في سبيل طلب العلا، وتحمل الأهوال والمشقات بغية تحقيق الوصول إلى الأخلاق الكريمة الفاضلة، والأهداف الإنسانية النبيلة. كما يظهر أنه كان يفتخر بكل ما افتخر به أجداده، وهي عادة يكاد لا يحد عنها في شعره.

فقد شبه في البيت السابق المكارم، وهي شيء معنوي بالمادي وهو السفينة التي تخوض البحار وتقطعها. ولو في الأهوال، ومن ثم حذف المشبه به وهو (السفينة)، وترك قرينة من القرائن الدالة عليها وهي الفعل (ركبنا). على سبيل الاستعارة المكنية. كما نذكر له قوله: (نطق الكتاب. افتخر الزمان). وهما استعارتان

حجاجية الاستعارة وتداولية الخطاب في الشعر الجزائري الحديث (الأمير عبد القادر أنموذجا)

مكينتان ، فحذف فيهما المشبه وهو (الإنسان) وأبقى على صفتين من الصفات الدالة على المشبه به المحذوف وهما (نطق - افتخر)، وهذا على سبيل الاستعارة المكنية.

انطلاقا مما تقدم نلاحظ أن الشاعر الأمير عبد القادر، وظف جملة من الاستعارات المكنية والتي كان الغرض منها جمالي بلاغي كالتشخيص أو التجسيم للمعنوي في صورة مادية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الغرض منها هو إقناع المتلقي بجميل الصفات المحمودة الحميدة، والتي اختص بها وقومه عن غيرهم، كالابتعاد عن الكذب، أو المجد وإجابة المستغيث، ونجدة الضعيف، ناهيك عن الكرم والصدق وغيرها من الصفات التي اشتهر بها العرب قديما.

إن تواتر هذه الصفات الحسنة والتي أقرها الدين الإسلامي، والتي نسيها لنفسه ولقومه ، قد أقحمها ليحتج بها عن السبب الذي سيجعل الأقسام اللاحقة ذكرهم حتى بعد وفاتهم . مما يحقق لهم الخلود في عقول وقلوب الناس . الشيء الذي تتحقق به حجاجية الاستعارات الواردة.

ومن الشواهد الدالة على الاستعارة، و الواردة في الديوان على كثرتها نذكر قول الأمير من بحر الطويل:

إلى الصوت مدّت تلمسان يداها *** ولبت هذا أحسن صوت نداها

وقد رفعت عنها الإزار، فلج به *** ويرد فؤادا، من زلال نداها

وذا روض خديها، تفتق نوره *** فلا ترض من زاهي الرياض عداها¹⁷

نظم الشاعر هذه القصيدة، والتي تضم أكثر من عشرين بيتا، والتي جاءت بعنوان (لبيك تلمسان)، وبعدها كانت تلمسان في تلك الفترة تعاني من وطأة الاستعمار. حيث أكثر من هجماته على سكان تلمسان، والتنكيل بأهلها. مما اضطر الأهل إلى طلب الغوث والنجدة من الأمير. فقالها عندما انتصر على الجيش الفرنسي ودخلها فاتحا منتصرا¹⁸.

يظهر جليا انطلاقا من الأبيات السابقة ، أن جملة الصفات البشرية ، والمبثوثة في ثنايا هذه الأبيات. قد استعارها الشاعر للدلالة على كل ما يبعث في النفس الغبطة والشعور بالسعادة، فيشبهها بالمرأة الحسناء أو تلك العروس التي تكون في أبهى حلة لها. تمد يداها طلبا للإغاثة والنجدة ، أو كالتى يحسن صوتها عندما تنادي طلبا للعون، أو كتلك التي ترفع عن وجهها الإزار لتكشف عن جمال حسن وجهها، أو كتلك الحسناء المتوردة الخدين من الخجل الذي يتفتق منه نور يزيدها بهاء وحسنا وجمالا.

إن هذه التعابير المجازية الاستعارية، بما فيها من شحنات أو طاقات تجسيمية قوية، حلقت عبر الخيال. فحركت ذهن المتلقي وشعوره، مجبرة إياه على الانتقال من الواقع المجرد المعنوي الذهني إلى آخر محسوس

مادي ملموس، وبالتالي جمعت من خلال هذا الارتحال بين ما يدرك بالحواس من خلال التجسيم أو التجسيد أو التشخيص، أو حتى ما يدرك عن طريق الخيال.

إن هذا التشخيص الذي تحققه الاستعارة من خلال الانتقال عن طريق جعل المعنوي في صورة مادية، يحقق تفاعلاً من جهة أخرى بين المتلقي والصور النصية، فالاستعارة إذاً وبهذا الشكل تحقق معنى يقوم على ركيزة الإثبات بعبارات وجمل أو آليات وتراكيب، إضافة إلى أنها تعمل الفكر وتعزف على وتر النفس فإنها تستهدف التأكيد من خلال الإقناع.

من هنا فإن المرجعية السياقية للقصيدة كما أن جملة الاستعارات المتتالية والمكثفة الموظفة في الأبيات، فبالإضافة إلى ما تفرزه من جمال وروعه وذوق، فإنها كانت بمثابة الحجة المقنعة على ما عانته تلمسان في سبيل تحقيق النصر وهذا ما يؤكد طلبها النجدة من الأمير، ليهون عليها بعض ما أصابها من المستدمر الفرنسي الغاشم.

لقد نشأ الأمير نشأة دينية مفعمة بالزهد والورع والتقوى، فقد أجمع الباحثون المهتمين بالتصوف عند الأمير عبد القادر، أنه كانت لديه ميولات منذ الصغر. هذه النشأة جعلت من الطبيعي أن يتأثر الشاعر بشيوخه المتصوفة، فيمدحهم ويمدحهم في شعره .

ومن ذلك ما جاء في مدحه لشيخه محمد الفاسي وهو مقيم بجوار البيت الحرام ، وفي القصيدة جهاد نفس شاق، وما يروى في مناسبتها أن القصيدة " قالها الأمير بعد أن انقطع إلى العبادة في غار حراء بمكة المكرمة إلى أن جاءته البشرية بالرتبة الكبرى على عادة المتصوفة"¹⁹.

حينها شدا بهذه القصيدة المطولة والتي يقول فيها:

أمسعود جاء السعد والخير واليسر * * * وولّت جيوش النحس ليس لها ذكرُ
ليالي صدودٍ وانقطاعٍ وجفوةٍ * * * وهجران ساداتٍ فلا ذكرَ الهجر
فأيامها أضحت قتاماً ودجنةً * * * ليالي لا نجم يضيء ولا بدر
فراشي فيها حشوه الهم والضحى * * * فلا التذلي جنب ولا التذلي ظهر
ليالي أنادي والفؤاد متيّم * * * ونار الجوى تشوي لما قد حوى الصدر
أمولاي طال الهجر وانقطع الصبر * * * أمولاي هذا الليل هل بعده فجر
أغث يا مغيث المستغيثين والهأ * * * ألمّ به من بعد أحبابه الضر
أسائل كل الخلق هل من مخبّر * * * يحدّثني عنكم فينعشني الخبر²⁰

إن القراءة الأولية للأبيات تشير إلى مخاطبة الشاعر نفسه معبرا عن ذلك بقوله (مسعود) على وزن صيغة اسم المفعول ، وهي وصف لحاله بأداة نداء للقريب قريبا حسيا أو معنويا. تحمل دلالات الفرح والسعادة اللتان تغمرانه لتعرفه إلى " محمد الفاسي " أستاذه الصوفي، وهي اللبنة التي بنيت عليها هذه القصيدة، وهو ما قصده بقوله (جاء السعد والخير واليسر) ، وهي كلها صفات معنوية مجردة ذهنية، شبه انطلاقا منها أستاذه " محمد الفاسي " بها، فهو كالسعد أو كالخير أو كاليسر. حذف المشبه وهو شيخه المقصود، وصرح بالمشبه به وهي جملة الصفات المذكورة ، وهذا على سبيل الاستعارة التصريحية تأكيدا منه لما يعتربه من فرحه غامرة بالتعرف عليه. كما أنه شيخه الذي أخذ عنه التصوف بمكة.

وتكثره الاستعارات في المقطوعة كقوله: (ليالي أنادي - نار الجوى تشوي - انقطع الصبر ...)، كلها استعارات مكنية شخصت حال الأمير، فهو يحتج بها ويقصّ عبرها رحلته الصوفية ، وما لاقاه عبرها من أحوال تتأرجح بين البسط والقبض أو بين السعادة والتعاسة فيقدم ما كانت هناك عبر رحلته الروحية. أمور مفرحة مسعدة كانت تقابلها أخرى موجعة للقلب محزنه.

وباعتبار أن الحب عاطفة فطرية جبل عليها الإنسان لا يملك لها دفعا ولا يستطيع معها صبرا، نجد في موضع آخر أن الأمير يستعير من تجربة الحب الأرضي الطيني البشري الإنساني موضوعا رمزيا إيمائيا موازيا ومعادلا في تجسيد الحب السماوي الروحي الإلهي حيث يقول من الطويل :

تجلى له المحبوب من حيث يرى *** فأعجبه أراه من حيث لا أرى
وغيبتي به فغاب رقيبنا *** وزال حجاب البين وان حسم المرا
فصرت أراه كل حين ولحظة *** وقد كان غائبا وقد كان حاضرا
وواصلني فلا تناكر بعد ذا *** وقربني فكان سمعا وبصرا
ولا طفني بقوله الحق معلنا *** إني قد اخترت قد اصطفت بلا أمترا
وكم من شهيد مات بالشوق والفنا *** محبا لذاك الحسن لو كان قدرا
وكم من شهيد للغرام مشاهد *** لبعض الذي شاهدت مات فأقبرا
وإذا قيس عامر تخيل نورنا *** في ليلى فمات والهـا متـحـيرا
لقد سبقت بالفضل منا عناية *** إليك فحدث عن عطاى مخبرا
وغن ودندن لا تمل لمفند *** وكن فرحا بالوصل لله شاكرا
وما زال يسقيني ومازلت قائلا *** له زدني ما ينفك قلبي مسعرا
وفي الحال حال السكر والمحو والفنا *** وصلت إلى لا أين حقا ولا ورا²¹

إن تفكيك بنية القصيدة ومن خلال القراءة المبدئية لمعانيها، وما تحمله يتضح لنا أن المتصوفة يرمزون في تجاربهم الفريدة للوصول إلى محبوبهم برموز يستعيرونها من التجارب البشرية، ويلتمسون ألفاظهم وعباراتهم من معجم الشعر الغزلي والخمري، الذي خلفه العاشقون العذريون، في شعرهم العف الطاهر من أمثال مجنون ليلى، وجميل بثينة والعباس بن الأحنف، أو حتى أرباب الغزل الحسي كعمر بن أبي ربيعة، أو شعراء الخمر الذين تهالكوا على حبها والتغني بها مثل أبو نواس.

ومن خلال تتبع بعض الحقول الدلالية والوقوف عند بعض القرائن الصوفية كقول الشاعر: (تجلى - غيبي - السكر - المحو - الفناء...) نستشعر أن النص يحلق في أسى صورة، محاولا الوصول إلى منطقة الفناء والتي تغلب عليها الغيبة عن الوعي والتلاشي في المطلق، فلغة الشاعر جاءت رمزية لأن الحب لدى المتصوفة ليس رحلة سهلة يصل إليها كل من أرادها، بل هو رحلة شاقة ومجموعات متتابعة من المشقات، يمارسها العبد خطوة بعد خطوة كالزهد، والورع والصبر والتوكل والرضا، وهي ما يعرف عندهم بالمقامات.

فالشاعر الصوفي ليست أمامه في هذه التجربة الفريدة إلا هذه اللغة الحسية التي يعرفها البشر، لذلك لجأ الصوفي إلى هذه الرموز الفنية ليعبر من خلالها عن أشواقه و مواجيدته الخاصة. كل هذه الرموز كانت ربما أقدر على نقل عمق التجربة الشعورية المعيشة.

لقد كشفت لنا هذه القصيدة عن لون جديد وصور زاهية فريدة لأنواع من الحب تصل درجة العشق، والتي طرحها أصحابها في لغة أو وسائل تعبيرية أدبية رمزية مجازية موحية. فهو حين يعود إلى موضوع الغزل العذري، والذي يظهر من خلاله عواطفه المتأججة الصادقة، فإنه بذلك يستعير هذا الموضوع ليؤكد لون من أسى ألوان الحب الإلهي الذي طرفاه العبد المخلوق والرب الخالق. وهو بلا شك لون من أسى ألوان الحب، إذ لا مجال فيه لنفاق أو رياء أو خداع، أو غرض من أغراض هذه الدنيا الفانية. فهو بذلك يربط بين شيئين لكنهما متناقضين مختلفين، الحب البشري ونقيضه الإلهي، وبالتالي يظهر هنا أن استحضار موضوع الغزل ما هو إلا استعارة تحمل بعدا حجاجيا إقناعيا تأكديا لما تحمله من غزارة طاقوية هدفها التأثير في المتلقي.

3. تحليل النتائج:

يعتبر الشعر العربي ميدان خصب و ثري للحجاج و آلياته، الشيء الذي يؤهله لأن يكون مادة خاما للدراسات الحجاجية المعاصرة.

إن معظم الدراسات اللغوية أكدت على أهمية الاستعارة، وجعلت منها أداة فعالة في تقوية الخطاب الشعري.

يعتبر شعر الأمير عبد القادر صورة معبرة و نموذجاً للشعر العربي في بناء الاستعارة، مما يجعلها الرابط بين واقع الشاعر وخيال المتلقي.

تمثل الاستعارات الموظفة في شعر الأمير عبد القادر صورا مجازية تنبض بالقوة و التأثير من خلال إبداعها و جدتها.

4. خاتمة:

لقد حظي مبحث الاستعارة باهتمام الدارسين على اختلاف أطباقيهم وتعدد مرجعياتهم الفكرية قديما وحديثا. وما كانت لتنال هذا الحظ لدى العلماء والدارسين، لولا ما تميزت به من قيم جمالية وأهمية جعلتها ترقى بالكلام، وتجعل له قبولا حسنا في وظيفة لا يمكن أن تؤديها غيرها، من قيم جمالية وأثر في الكلام كإضافة الحسن إلى الكلام وتزيينه، أو الإيجاز لكونها أبلغ من الحقيقة، ناهيك عن التجسيم أو التشخيص أو التوضيح أو تحضير العقل والخيال. من هنا تعتبر الاستعارة أداة الباحث للغوص في نوايا المتكلم وتفكيك الخطاب الأدبي. إن مختلف وجهات النظر في الاستعارة تتكامل فيما بينها ولا تتزاحم، لأنها ليست تعبيرا عما هو كائن فحسب، بل هي كذلك خلق لما ليس كائنا، فأصبحت قادرة على لفت انتباه المتلقي. فهي جوهر الفعل الشعري الذي يحرر الطاقة الشعرية الكامنة، بل أصبحت هي البنية المركزية للشعر القادر على كشف المعاني العميقة التي يهدف إليها المتكلم، وبالتالي أصبحت بذلك من صميم التجربة الشعرية، لأنها تثرى العمل الشعري، محلقة بها إلى الأفاق البعيدة من خلال أعمال العقل وتحريك عجلته، ناهيك عما تحققه وفق ما تحدثه من تزواج وتفاعل.

أما أهم ما توصلت إليه هذه الدراسة المتواضعة فكان كالاتي:

- جاءت لسانية النص الأدبي لمحاولة الدراسة لبنية النصوص ضمن تأثيرات وظائفها. فالخطاب لديها كلام تجاوز الجملة الواحدة إلى ما هو أكبر منها.
- يظهر في شعر الأمير عبد القادر أنه يستحضر الأطراف المتخاطبة في القصائد، كالزوجة أو الصديق أو الشيخ أو الآخر، ويربطها بسياقاتها المختلفة مما يحقق أبعادا كلامية تداولية.
- إن اختيار المتكلم لبعض الصيغ والألفاظ أو التراكيب اللغوية، ومن خلال نظرة العلماء العرب اللغويين، يأتي عن قصد وهو ما ركز عليه التداوليون كمبدأ من خلال ربط هذه التراكيب اللغوية بالقصد العام من الكلام.

6. قائمة المراجع:

- 1- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، ط2، بيروت، لبنان، 2007، ص27.

- 2- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2003، ص20.
- 3- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة و الشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، دار الفكر العربي، دت، ص12.
- 4- نفسه، ص16.
- 5- أبو عثمان الجاحظ، البيان و التبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، دط، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، لبنان، دت، ص115-116..
- 6- نفسه، ص176.
- 7- الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، الحجاج مفهومه ومجالاته، تقديم: حافظ اسماعيل، ج3، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010، ص45.
- 8- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط4، بيروت، لبنان، 2004، مادة(عور)، مج9، ص334.
- 9- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني، دط، جدة، دت، ص30.
- 10- نفسه، ص30-33.
- 11- نفسه، ص43.
- 12- أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1987، ص369.
- 13- نفسه، ص
- 14- آيفور أرمسترونغ ريتشاردز، فلسفة البلاغة، ترجمة: سعيد الغانمي وناصر حلاوي، أفريقيا الشرق، دط، بيروت، لبنان، 2002، ص91.
- 15- محمد الدسوقي، البنية التكوينية للصورة الفنية، دار العلم والإيمان، دط، مصر، 2009، ص180.
- 16- ديوان الأمير عبد القادر، جمع وتحقيق وتقديم: العربي دحو، منشورات ثالة، ط3، الجزائر، 2007، ص46.
- 17- نفسه، ص47.
- 18- محمد السيد محمد علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافته وأثرها في أدبه، مطبعة الشعب للجيش، دط، 2007، ص38.
- 19- الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص102.
- 20- نفسه، ص102-103.
- 21- نفسه، ص121-122.